أدوات الوصول إلى الأطفال

عادل ابوشنب

بحث مقدم باسم اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق

ما هي الأدوات التي يستخدمها كتّاب الأطفال في الوصول الى قرائهم الصغار ؟ بل ، ما هي الأدوات التي يستخدمها الفنانون عامة (كانوا يستخدمونها وما يزالون) في انشاء نتاج ما ، رواية او قصة أو قصيدة للاطفال (١) ؟

لنحدد المعنى بدقة . أية أدوات نعني ؟

ان القص يؤدى بطرائق متعددة ، قديمة وحديثة ، واللغة ـ كمثال قد يرد في الحال ـ ليست أداة ، هاهنا ، بل هي وسيلة من وسائل القص. الأدوات هي التي تقوم بوظائف الايصال ، وعن طريقها يتم الاحتكاك بين المعطي والمتلقي . هي الجسور التي تعبر بواسطتها الافكار والسياقات والحوادث من شاطي الى شاطيء .

ولكن ثانية ، ما هي هذه الأدوات ؟

١ ـ الخوارق :

نفترض نحن الكبار ، أننا نقرأ سندريللا ، الآن . فماذا نرى غير هذا الثالوث: الأميروالفتاة الفقيرة والساحرة،اوالفتاةالفقيرة والأميروالساحرة، او الساحرة والأمير والفتاة الفقيرة ، ، ويشدنا من هذا الثالوث القطب الأكثر إثارة : الساحرة . وهو ، بالضرورة يشدّ الأطفال أكثر ، لأنه القناة التي عن طريقها نسجت الاسطورة او الحكاية او القصة . الساحرة هي الأداة . لا الساحرة كمخلوق ، موجود او غير موجود ، بل الساحرة كفعل مثير خارق وغير مألوف .

تساءل خورخي انريكي أدوم (٢) : « لوكتبت افريقيا قصة سندريللا، أكانت تبقى الساحرة بيضاء القلب والبشرة ؟ » (٣)

بعيداً عن المدلول السياسي للجملة .. الساحرة تبقى ساحرة والخوارق تلهب الخيال . الأداة هنا ليست بذات صفة انسانية لكن للساحرة ملامح انسان في الوقت نفسه ، انسان خارق في افعاله ، وهذا ما كان يثير الأطفال ، في جميع انحاء العالم ، والاخوان جاكوب ووليم غريم (٤) لم يفعلا أكثر من السرد المثير ، باستخدام الأداة التقليدية المثيرة، التي ورثها كتّاب قصص الاطفال من أساطير الشعوب ، واستخدموها بتحوير قليل او كثير ، فالاحتكاك يتم في وسط إنساني ، أي ان قصص الأطفال ، منذ أن صارت جنساً ادبياً له كتّابه ، جعلت الساحرات وسحرهن من ادوات الصنعة ، وليس في صلب عملية القص ، كما كان يحدث في الأساطير ، ولعل هذا الانتخاب المستحدث هو الذي أوحى بالنقلة المثيرة ، فيما بعد : إسباغ خصائص الساحرات على مخلوقات انسانية . من هذه النقطة نستطيع ان نفسر ولادة شخصية «سوبرمان» ـ على سبيل المثال ـ الذي لا تقف قوة في وجهه ، والذي غدا « ساحرة » فترة ما في هذا العصر ، وملهب خيال الأطفال ، في مدى عدة عقود ماضية ، وما زال خارقاً اخاذاً ، كما كانت الساحرات بالضبط (٥) .

الساحرات الخارقات من ادوات القص ، كانت ، وما زالت ، في صنعة الكتابة للاطفال ، بل في الصنعة المشابهة ، الرواية الشفهية التي نسميها عادة حكاية ، ويدخل في عداد هذه الأداة شخصيات لاحقة ، مشابهة ، وبأفعالها وخوارقها ، تقوم بالمهام نفسها . واحدة من ادوات الأداء القصصي ومن أقدمها هي إذن ، ولا يمكن الادعاء بأنها لاتستخدم اليوم ، فالمسألة ليست مسألة لفظ محدد ، بل هي مسألة وظيفة . «السوبرمان» بديل حديث يؤدي الوظيفة نفسها ، والكتّاب، باستخدامهم لهذه الشخصية ، لا يلغون الأداة القديمة ، الساحرة ، بل يؤكدونها ، وبالتطور الذي حدث ، وبخاصة في ميدان الطباعة ، تبدل الاستخدام المهني ـ المهني بكل ابعاد الكلمة ـ للخوارق . كان للساحرات وصف ما متبدل في كل حكاية ، وكان القاص ، الراوية ، يرسم الملامح ويصور الافعال ، داخل دائرة واسعة ، تتحكم فيها ظروف مختلفة : السياق القصصي للحكاية ، أسنان المتلقين ، الوقت الذي تلقى فيه الحكايات : (الليل المظلم الذي يسبق النوم يتطلب ملامح غير مفرقة في البشاعة للساحرات ، أو قد يتطلب ساحرات طيبات ينقذن بعصيهن السحرية الفتيات الطيبات) وشيئاً فشيئاً صار الخارق رسوماً ، أو صوراً متحركة (٦) وبقيت له خاصيته الفذة : الإثارة .

السحرة القدامى او الجدد .. من ادوات الكاتب في الوصول ؛ والخارق .. هو الذي يجذب لا لأنه خارق فحسب ، بل لأننا كاطفال نعترف بمعجزاته التي لا نستطيع نحن أن نؤديها والتي في الوقت نفسه ، نصدقها ونؤمن أنها حقيقية ، وموجودة فعلا . ولو اننا توهمنا ، خلال غمضة عين واحدة ، أنها وهم لكنا قد اجتزنا عتبة الطفولة ـ اولاً ـ ولكنا الغينا هذه الأداة من قاموس الأدوات التي تستخدم في الايصال ـ ثانياً ـ ولكنا قد وقعنا في مأزق الفصل بين ما هو وهم وما هو حقيقة، في مناخ يجب أن تقدم فيه النماذج والحوادث والاشياء والأمور على انها حقيقة ، ولو

---

(١) نستخدم لفظ رواية بالمعنيين : التقليدي الذي هو القص الشفاهي ، والآخر الذي هو القص بالكتابة والرسم والصورة .

(٢) شاعر وروائي من الاكوادور في مقال له عن تاثير قصص الاطفال المكتوبة في اوروبا على اطفال امريكا اللاتينية .

(٣) عن جريدة النهار ـ العدد ١٤٠٣٢ تاريخ ١٩٧٩/١٠/٢ وهذه نقلا عن « رسالة اليونسكو » .

(٤) من مؤلفي القصص للاطفال .

(٥) من الممكن ان نسمي الساحرات جنيات ، كما هن في بعض الاساطير والحكايات السائدة في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط ، او ان نستبدلهن بهن .

(٦) تحول « سوبرمان » على سبيل المثال ، الى رسوم في قصص مسلسلة نشرت وتنشر مستقلة او في المجلات ، كما تحول الى رسوم متحركة في السينما والتلفزيون . ويماثل «سوبرمان» في شهرته شخصيات اخرى ، لكل منها ملامحها الخاصة، او « تفوقها » الخاص.

إننا نخاف الساحرات لانهن « موجودات » في اذهاننا . ووجودهن حقيقي عند الطفل ، لأن افعالهن خارقة ، خارقة ومن هذا النوع الذي لا يصدق ، ونريد ان نصدقه ولو لم يحدث فعلا . إن الـ « سوبرمان » لم يوجد بعد، لكنه موجود، والأطفال يريدون أن يقابلوه ذات يوم وجهاً لوجه، لانهم يقابلونه صباح مساء في المجلات والأفلام ، واذا ما تجرأ خالقه (الكاتب او الفنان) فأعلن انه شخصية غير حقيقية ، فهذا يعني إلغاء لخوارقه التي هي اداة وصوله الى الطفل ، اي يعني الغاء لوظيفتـه ، ويعني في الوقت نفسه ، الغاء لحرية الطفل في أن يمارس طفولته ، مع ابطاله ، في تصورهم موجودين وحقيقيين .

إن المميزات المتوفرة في هذه الأداة قد انتبه لها ، وطوعت لتؤدي وظيفة الايصال ، وفي كثير من الأحيان ، لتقوم بمهمة شبيهة بالمهمة التي يقوم بها النحل في نقل غبار الطلع . فالسوبرمان الأمريكي لاينقل للطفل خوارق الانسان غير العادي فقط ، بل يصور وينقل له انتصار الامريكي نفسه « وهـذا هو جوهر الايديولوجيـة الامريكية : العنف والقـوة والتفوق»(٨) ايضا . والطفل مقتنع بوجود هذا السوبرمان الذي لايغلب(٩)، فاذا اردنا أن ننتزع من صدره هذه القناعة ، فعن طريق إيجاد البديـل الخارق الأكثر اتصـالا بحيـاة الناس ، وليس عن طريـق اقناعه بأن « سوبرمان » شخصية خيالية وغير موجودة . انه يريدها أن تكون حقيقية وان كانت غير حقيقية . وهو ينتظر أن يقابلها فجأة ، وهذا يظهر مدى ما لهذه الاداة من نفوذ وهيمنة على الاطفال ، ويظهر طغيانهـا على الكتاب انفسهم ، فهي تفرض نفسها ، بخيلاء ، وفي خصائصها من المغريات ما يجعل الكتاب يفكرون في استخدامها دائماً ، وسعداء هم الكتاب الذين يستطيعون أن يبتكروا خوارق يجمح الخيال في تصويرها ،وتصوير ابطالها، سعداء لأن حالهم تبدو كحال الباحثين عن الذهب .. وقد اكتشفوا منجماً جديـداً .

هل لنا أن نتصور ماذا كسب خالق شخصية « سوبرمان » من شهرة ومال على سبيل المثال ؟

٢ ـ الأنسنة (١٠)

في الماضي لم يكن السحرة وحدهم ، أداة رائجة ، في ايدي الكتاب والفنانين . كان الحيوان اداة رائجة اخرى ، استخدمت بمهارة ، في عملية القص ، سواء بالصورة او باللغة ، وقبل « كليلة ودمنة » بعشرات القرون ، صورت الحيوانات في المغاور والكهوف ، واحيانا كانت رموزاً وتمثيـلاً لمدلولات وقصص ذات معنى ، بل وكانت تأريخاً لحقب مجهولة .

في « كليلة ودمنة » (١١) تبدو هذه الأداة صارخـة في حضورهـا وفعاليتها . ابن آوى يروي، وابطال القصص جميعاً ـ إلا قلة ـ حيوانات تقوم بأفعال إنسانية ، وتتصرف كالبشر . هذه « الأنسنة » المقصودة قـد لاتعنينا من حيث كونها تفادياً لخطر المواجهة ، او من حيث كونها تجنباً لصراحة غير مستحبة ، لكنها تعنينا ، بالضبط ، لانها حفرت في هذا المجرى الفني اخدوداً عميقاً . أن نجعل الحيوانات بشراً في السلوك وفي الفعل وفي النطق ، وأن نزج بها في عالم الحياة اليومية للانسان ، في فترة ما ، فهو تمكين للكتاب والفنانين من أن يستعيروا الحيوانات ويوظفوها في اغراض ابداعية ، تخاطب الصغار ايضاً . هذه « الأنسنة » اداة رائعة سيبقى العالم مبهوراً وهو يستخدمها ـ وخاصة في مخاطبة الاطفال ـ لابهدف ترميزي ، بل بهدف الإدهاش المباشر . وهل ثمة ما يدهش الطفل اكثر من ان يتكلم العصفور ، ويتزوج الحمار ، ويعيش الثور كما يعيش الانسان ؟

في هذا الميدان تفننت الوسائل الناقلة للثقافة . فلم تبق « الأنسنة» لصيقة بالعرض الشفهي او المقروء فقط ، بل أشركت الرسم والتصوير في ذلك ، ونشرت قصصاً مرسومة ، ابطالها حيوانات تتصرف كالبشر . وفي كل من السينما والتلفزيون قدمت للاطفال الأرانب والفئران وغيرها ، كأنها أناس يفكرون ويغضبون ويسرون ويتكلمون (١٢) ، ومع معرفة الطفل بأن هذه الحيوانات ليست بشـراً وليست حيوانات حقيقية ، بـل هي رسوم ، فان هذا المعرفة لم تفسد عليه متعته في الاعتقاد بأنه يتعامل مـع وسط انساني اولاً ـ ربما بسبب من كون السياق القصصي يسير في هذا الاتجاه ـ وبأن هذه الحيوانات التي هي ليست حيوانات وليست بشراً ، تتعامل مع بعضها بمنطق انساني ،ثانياً ،بمعنى ان ماحدث اويحدث للفأر الشهير « ممكن الحدوث » لانسان ما ، أما المبالغات التي ترافق العروض عادة ، فمبالغات يعرف الأطفال انها تستهدف الاضحاك والمزيد من المتعة .

والأنسنة كأداة تجاوزت الحيوانات ، وأعطت ملامحها للطبيعة . الاشجار تتكلم في القصص ، وليست الفراشات وحدهـا ، والعشب ، والجبل ، القمر والشمس ، تتصرف كما يتصرف كل من رندا وسامر . وهاهي الأفكار الأولى تتحول الى أناس بقمصان منشاة وسراويل ملونة(١٣) وإن لم يقال بعد في هذا الاتجاه لأن الأفكار مجردات ، يصعب تبسيطها

---

(٧) كمثال وقعت مجلة « اسامة » في هذا المأزق (العددان ٢٥٧ ـ ٢٥٨ تاريخ ١ و ١٦ تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٧٩ ـ عدد مزدوج ـ) عندما ردت على الطفلة نائلة يوسف من حمص التي كتبت للمجلة : « اعجبتني رسائل اسامة التي كتبها عن رحلاتـه الى ايطاليـا وصوفيا ، لماذا لا يكتب اسامة هذه الرسائل دائما ؟ نريد ان نتعرف على شخصية اسامـة . لماذا لا تنشرون صورته ؟ » ردت بقولها : «اسامة شخصية من شخصيات المجلـة ، وليسـى شخصا حقيقيا . وقد كتب الاستاذ عادل ابو شنب عددا من القصص المصورة عن «مغامرات اسامة في الارض المحتلة » وعندما نقول : اسامة يكتب لكم من روما او من صوفيا ، فهذا هنا ان احد المحررين في المجلة قد قام بهذه الجولة وكتبها لكم بتوقيع اسامة » ـ الصفحة ٦ ـ واسامة شخصية ابتكرت ، اصلا ، لتكون بديلا واقعيا للسوبرمان ، وقد قام ببطولات من نوع الخوارق التي يمكن ان تحدث ، فاصبح بذلك شخصية حقيقية ، يتلفت الطفـل ليقابلها في اية لحظة ، ولكن ، هكذا ببساطة الفته المجلة عندما اعلنت انه غير موجود فعلا ، وبالملامح المفترضة للبطل المنشود .

(٨) جريدة « تشرين » الدمشقية ـ العدد ٩٣٥ ـ تاريخ ١٩ تشرين الاول ١٩٧٨ ـ مقال « الاحتفال بالفار الامريكي « ميكي ماوس » في عامه الخمسين » .

(٩) تورد جريدة « تشرين » في العدد نفسه ان ايك لجاب يذكر في كتابه ـ فن الشريط المرسوم ـ « ان الرئيس الامريكي جون كنيدي كان يتدخل في سير قصـص رسوم سوبرمـان الموجه اصلا للاطفال ويفرض في احيان كثيرة النهاية المحتومة التي تصور انتصار السوبرمان الامريكي » .

(١٠) لم نجد كلمة اكثر مناسبة منها .

(١١) كتاب اختلف المؤرخون فيه ، بعضهم قال ان ابن المقفع ترجمه عن اللغة الفهلويـة (الفارسية القديمة) الى اللغة العربية، وبعضهم قال انه اقتبس جزءا منه وترجم جزءا آخر والابحاث الدقيقة اكدت ان للكتاب اصولا في الهندية وفي اللغة السنسكريتية . وكليلة ودمنة هما اخوان من بنات آوى سمي الكتاب باسميهما المذكورين في بابين من ابواب الكتاب .

(١٢) في في كانون الاول ١٩٧٨ احتفـل بمرور خمسين سنـة على ولادة اول فيلم بطلـه « ميكي ماوس » الفار النجم الذي لم يتقدم به العمر قط ، والذي خلقه والت ديزني أول ما خلقه في فيلم من الرسوم المتحركة انتج في هوليود وعرف باسم « سفينة ويللي » ويعتبر ميكي ماوس نجم اول فيلم للرسوم المتحركة في العالم . ولصعوبة انتاج هذا النوع من الافلام لـم يصدر عن السينما العربية انتاج منظم ومستمر للرسوم المتحركة ، بحيث يغدو معه بطل مـا شعبيا على نحو ما حققه ميكي ماوس .. وهذا نقص يجب تلافيه ، مثلما تلافت دور النشـر والصحف والمجلات العربية النقص في القصص المصورة ، فافردت زوايا لها او نشرت كتبـا خاصـة بهـا .

وتجسيدها ، او انه لا يمكن تجسيدها الا بحذر ، وبصيغ مباشرة ، كأن نجعل الرذائل بشراً ، كما في القصة المنشورة ، في الهامش كمثال .

ماهي هذه الاداة ؟

إذا ما عدنا الى رسائل اخوان الصفاء وجدنا في واحدة منها حواراً بين الحيوانات وبين بني البشر ، حول طبيعة كل نوع ، فالحيوان لم يختر شكله بنفسه ، بل الخالق تعالى هو الذي خلقه بشكله ، وإذا كان له عنق طويلة كالزرافة ــ على سبيل المثال ــ فليصل الى ذرى الاشجار ، وهذا أمر لا يقدر عليه الانسان ، فالحيوان يفضله بهذا ، والجاحظ يرى الحكمة شيئين ،« شيئاً جعل حكمة وهولا يعقل الحكمة ولاعاقبة الحكمة ، وشيئاً جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ، فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة ، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لايستدل ، والآخر دليل يستدل ، فكل مستدل دليل ، وليس كل دليل مستدلا ، فشارك كل حيوان ، سوى الانسان ، جميع الجماد في الدلالة ، وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للانسان أن كان دليلا مستدلا ، ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ، ووجوه ما نتج له الاستدلال ، وسموا ذلك بياناً » (١٤) .

افترضت هذه الأداة ، ونقصد « الأنسنة » جميع المخلوقات ، من انواع الانسان أو الحيوان أو الجماد ، بشراً، وافترضت أنها عاقلة وتفكر ، اي أنها حكمة وتعقل الحكمة ، كما يقول الجاحظ ، لقد ساوت بين الجميع، وأزالت خصائص يتفرد فيها الحيوان أو الجماد ، أو خصائص يتفرد بها الانسان وخلطت الخصائص ، بعضها ببعض ، وجعلت المخلوقات في نظر الاطفال سواء ، والارض في قصة الفضل بن عيسى بن ابان التي لم تجب بالكلام بل اجابت اعتباراً (١٥) ستنطق هي نفسها ، لأن هذه الاداة قد مستها بسحرها الذي لا يقف محال في وجهه . كل شيء مستباح . لا شيء يبقى كما هو . الجماد يتكلم ، يحيا ويموت كأي انسان ، وحتى القمر يتبادل الحوار مع الاطفال . والحيوانات التي تسير على اربع لحكمة خلقها الله فيها ، كما يقول اخوان الصفاء في رسالتهم ، تسير بقائمتين ، وفي قصة « ليلى والذئب » الشهيرة جداً ، يبلغ المكر والخبث في هذا الحيوان انه يتنكر ويتحدث بشكل وصوت الجدة . بالأنسنة .. توحد العالم أمام الاطفال ، وصار إنساناً . لقد امحت الحدود بين الأنواع .

تلك هي واحدة من خصائص « الأنسنة » بل هي خاصيتها الاكثر اهمية .. ولنقدر اية اداة هذه ، التي حملت الكون الى الاطفال متساويا بعمق ، لا بسطحية .

ان استخدام هذه الاداة مبرر ، الآن ، وبالنسبة لنا هو ربط بين الحاضر والتراث ، في ميدان ، نحتاج فيه الى ادوات جاذبة ، غير ان الخطأ ينتج ، لا بسبب الاستخدام ، بل بسبب المفهوم الخاطيء للاستخدام، اي بسبب عدم فهم طبيعة هذه الأداة.الأنسنة تجعل العالم متساوياً،لكنها في الوقت نفسه تفرض قانونها الحاد الحاسم ، فليس كل حيوان بقادر على ان يكون انساناً متكلماً أو متصرفاً بسلوك انساني ، في اي ظرف وفي اي وقت . ان البناء الفني للقصة يستعين بقانون الأنسنة وقتئذ ، ففي مناخ واقعي ، والسياق القصصي في قصة ما مطابق للواقع ، على نحو فوتوغرافي ، يبدو نابياً أن تتكلم زهرة شقائق النعمان (١٦) ، ثم أن اللعب بالطبائع مسألة في منتهى الدقة ، فالحمار ، كمخلوق ، غبي بطبعه ، وصبور ، وكي نجعله ذكياً ، واحياناً يمنح نصائح ثمينة (١٧) علينا ان نجعل القضية التي يدلي بنصحه فيها من البداهة بحيث يبدو النصح من تحصيل الحاصل ، والادهاش يحدث عندئذ من المفارقة ، فالمتوقع الا يدلي الحمار بالنصيحة الثمينة ، وإذ يدلي بها ، فانه يدلنا لا على بداهة القضية فقط ، بل على ان الكاتب قد اراد أن يبدل من طبيعة الحمار ، حسب مقتضى الحال في هذه القصة . فهو ، في الحق ، لايبدل من طبيعته، لكنه يستخدمه في نقيضه ، حتى ينبه إلى البداهة .

ويبقى الحديث في هذه الاداة مبتسراً ، مقصراً ، لأن الأمثلة الحديثة بخاصة ، كثيرة الى حد أن التساؤل عن السبب في استخدام هذه الأداة

---

(١٣) للكاتب قصة « الرذائل تنتخب زعيمها » وهذه هي :

(اجتمعت الرذائل في الساحة لتنتخب زعيما لها . ونادى مناد بصوت قوي :

ــ من يرشح نفسه للزعامة ؟

فرفع الكذب يده ، وقال :

ــ انــا ..

وساله المنادي :

ــ لماذا ترشح نفسك ؟

قال الكذب :

ــ لانني اقلب الحقائق .

واعترض النفاق بصوت عال :

ــ الكذب لا يصلح للزعامة مثلي . انا ازور الواقع ، واعطي من اخاطبه صفات ليست فيه . انا اصلح الجميع للزعامة ..

وتتابعت الرذائل في الكلام ، كانت كل رذيلة تشرح خصائصها بحماسة ، الكسل والتواكل والحسد والكراهية والنميمة والحقد وغيرها ، وحارت الرذائل من تنتخب ، فكل رذيلة تصلح للزعامة ، غير ان الحيرة انتهت عندما وقفت الانانية في الساحة ، وسط الرذائل جميعا ، وقالت :

ــ انــا ، والله ، اصلح الجميع للزعامة .

وصفقت الرذائل للانانية عندما رات الى وجهها البغيض ، وانتخبتها بالاجماع ..)

(١٤) من دراسة للاستاذين نعيم حمصي وعبد المعين ملوحي لكتاب الحيوان للجاحظ ــ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ــ دمشق ١٩٧٩ في سلسلة « المختار من التراث العربي رقم ١١ »

(١٥) وقال الفضل بن عيسى بن ابان في قصصه : « سل الارض ، فقل : من شق انهارك ، وغرس اشجارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجبك حوارا ، اجابتك اعتبارا » ــ المصدر السابق ــ

(١٦) عد الى بحث « دراسة تطبيقية لنصوص ادبية مكرسة للاطفال » لعادل ابو شنب ــ مجلة « الموقف الادبي » العدد ٩٥ ــ آذار ١٩٧٩ (عدد خاص بادب الاطفال)

(١٧) وهذه هي القصة من مجموعة «اصدقاء النهر» لعادل ابو شنب ــ نشر دار المسيرة في بيروت ١٩٧٩ :

(وقف العصفور الصغير يروي على اصدقائه قصته ، فقال :

ــ انا عصفور صغير . نزحت أسرتي عن عشنا ، هربا من الاعداء .. بكيت قليلا ، ثم استاجرت حمارا ، ورحت ابحث عن الأسرة في كل مكان من ارض الوطن .

قيل لي انها هاجرت الى الشمال

وقيل انها رحلت الى الجنوب

وقيل انها هربت الى الشرق ..

واخيرا قالوا انها استقلت مركبا شراعيا وسافرت الى بقعة نائية في الغرب .

سالت صديقي :

ــ لو كنت مكاني ، ماذا تفعل ؟

قــال :

ــ انــا حمار . من يصغي الى نصيحة حمار في هذا الزمان البائس ؟

قلــت :

ــ انــا

قال :

ــ عد الى عشك الذي ولدت فيه . حصنه جيدا وروض نفسك على ان تحيا فيه، قاوم الاعداء قدر ما تستطيع ، واذا اغتالوك فحسبك فخارا انك مت في عشك ...)

بكثرة مفزعة ، واحيانا في الاقتصار عليها ، اصبح ملحا ، لقد استسهل استعمال هذه الأداة ، حتى غدا التجريب في الكتابة للاطفال لايتم الا بها ، مما ترك في الساحة العربية رصيداً هائلاً من النتاج المكرس للاطفال يجب التمحيص فيه .

٣ ــ المؤثرات

لا الرجل الآلي ولا رجل الفضاء ولا الحرب بين الكواكب (١٨) وحدها جذبت الأطفال في القصص التي تسير في هذا الاتجاه ، بل الجو الذي يحيط بهؤلاء جميعا .. هو الذي يعمق اهتمام الاطفال بهذا القص المستحدث ، المبني أصلاً على المعلومات المتوفرة في الوان الحضارة المعاصرة.

ولكن ما هو هذا الجو ؟

يبدو الصراع في قصة ما عن حرب دائرة بين كواكب ما وسفن فضاء قادمة من الارض .. صراعاً شبيهاً بقتال مثير بين الديكة في قرية ، من تقاليدها هذا الاقتتال . انه مثير بقدر ما هو حار ، لكن إثارته من النوع المألوف ، الذي يصبح عاديا بالتكرار ، ولو ان منظماً حذقاً لهذا اللون من الاقتتال أدخل الايقاع الموزون ــ بشكل ما ــ عليه .. لتجددت إثارته . وفي هذه الحالة نستطيع الادعاء بأن الاثارة قد جاءت بسبب من الجو الذي أحدثه الايقاع الموزون . وهذا الجو .. ماكان ليحدث لولا المؤثر الطارىء الذي قد يكون طبلاً أو مزماراً أو حتى تصفيقاً بالأيدي .

المؤثر .. أداة كالخارق وكالأنسنة ، أداة في الجذب، وأداة في الوصول للأطفال ، وهو ليس حديثاً ، فالراوية في الماضي ، كثيراً ما كان يستعين به في نقل رواده الى جوه . فان كانوا أطفالاً يصغون الى حكاية بطلها الغول (١٩) ، جاء الراوية بصوت الغول ، وأطلقه من فمه بالشكل الذي يحلو له ، فخلق في الجو المؤثر المناسب ، وإن كانوا كباراً يصغون الى سيرة الزير سالم مثلاً انشد الراوية شعراً بتنغيم يتناسب ومقتضى الحال ، فوضع سامعيه في الجو الذي يريده ، او انه اطلق صيحات شبيهة بصوت حصان الزير ليشد جمهوره إليه ، والأمهات يغنين غناءً خاصاً مع الحكايات حتى يضعن أطفالهن في « جو » النوم ، وكي يكون التأثير فعالاً تضاف الموسيقى في العروض المسرحية والسينمائية ، وما الموسيقى الا الأداة التي تهييء المتفرج ، صغيراً كان أوكبيراً ، للنفاذ الى « داخل » العمل الفني ، اي أنها العامل المساعد في خلق الجو الملائم .

ويدخل في هذه الأداة الديكور المسرحي أو التلفزيوني الذي يقوم بالوظيفة نفسها ، فهو عامل مساعد في خلق الجو الملائم ، وهو من هذه المؤثرات التي كثيراً ما تكون ، بنفسها ، الأداة الجاذبة في العمل الفني ، كما يدخل فيها تكوين الدمى في مسرح العرائس وصناعتها والابتكارات فيها ، لأن صناعة دمية بشكل ماقد يكون له فعل خارق في الجذب، وخاصة بالنسبة للاطفال . فهذا المؤثر الذي له امتداداته الساحقة في القدم ، كتب له أن يستيقظ ويحيا مجدداً ، ويكون أداة للوصول للاطفال ، ولم يعد مقتصرا على الصوت الذي ينقل الجو والمناخ ، بل تعداه الى نواح أخرى .

في قصص الخيال العلمي .. لايبهرنا التركيب غير المألوف للأحداث فقط ، بل تبهرنا « الخدمات » التي توضع لتنقلنا الى عالم غير مألوف ، عالم خيالي ، لا يفترض انه موجود او معروف سلفاً ، الثياب غير العادية لرجال الفضاء ، الأشكال التي يظهر بها الرجال الآليون ، طريقة طيران سفينة الفضاء أو الطبق الطائر ، وقبل ذلك كله « جو الحياة » في الكواكب الأخرى وفي علاقتها ببعضها البعض عن طريق تكنولوجيا متقدمة تتلألأ فيها أضواء وتنطفىء أضواء، وتفتح أبواب ماكان ليخطر بالبال انها أبواب، وتعيش وتصور مخلوقات ليس لصورها اشباه في الحياة الواقعية على الأرض . هذا المؤثر المثمر .. أداة قديمة ــ جديدة ، في أيدي الكتاب والفنانين ، انضجتها نار الحضارة الجديدة ، والنوافذ التي فتحها الخيال على العلم ، أو العلم على الخيال، وهاهم الفنانون يستخدمونها بنجاح يلهب المشاعر(٢٠)

ولعل من خصائص هذه الاداة كونها عجينة ضخمة في عقل الفنان ويده ، بل لعل من خصائصها أنها تبتلع الخيال مهما اشتط وتعاظم ، أنها تقول للفنان : ابحر في ظلمات الخيال وهات ما تصل اليه يداك ، فانا قادرة على الذهاب معك في رحلتك الى ابعد مما تظن . لا حددو لي ... استخدمني كما تريد ، وسأكون ماردك الذي يلبيك أبداً ..

* * *

إن هذا البحث الرائد في أدوات الوصول الى الاطفال ، قد أريد له أن يكون مختصراً ، لانه استهلال ، يستهدف ، التنبيه الى أقنية جذب الاطفال منذ القديم ، وهي أقنية ــ أو أدوات ، كما سميناها ــ فرضت نفسها اثناء تطور عمليات الخلق الفني ، ولأنه استهلال ، فان البحث فيه سيكون مثيراً وذا دلالات ، عندما يؤتى بشواهد من النتاج القديم والحديث لتعزيزه ، وعندئذ لن يكون استهلالاً ، بل سيكون اطلالة بانورامية على جنس فني وأدبي ، صار معترفاً به في العالم ، بل صار واحداً من الأجناس التي لها أكبر عدد من المتلقين . وهل ثمة أكثر من الأطفال جمهوراً يتلقى بشغف في العالم ؟

دمشق

* * *

(١٨) كثرت الافلام والمجلات التي تدور في هذا الفلك مؤخرا ، وقد تكون قليلة في الساحة العربية لكنها لن تكون كذلك في المستقبل ، فهذا الضرب من الافلام والمجلات سيملأ السوق العربية مثلما فعلت افلام ومجلات طرزان وسوبرمان وميكي ماوس .

(١٩) الغول شخصية خرافية ، استخدمها العرب كثيرا في ميثولوجياهم .

(٢٠) من المناسب ان نذكر هنا ان الرسم بالالوان يدخل في دائرة هذه الأداة ، اللون ، كالصوت ، يخلق الجو والمناخ اللازمين لاحداث التأثيرات المناسبة ، وفي القصص المسلسة التي تنشرها مجلات الأطفال الكثيرة في العالم (تان تان على سبيل المثال) يتبارى الفنانون في التأثير باللون . ولقد انتبه العرب الى ذلك في يقظتهم الاخيرة في ميدان الكتابة للاطفال ، فاصدوا مجلات ملونة تطبع بطرق طباعية حديثة ، كاسامة في سورية ومجلتي في العراق وسمير في مصر وسامر في بيروت وسعد في الكويت .